هدنة

يظهر[1] أن المفاوضات الدقيقة الشائكة التى كانت تدور بين الاسكندرية وفرسايل قد خطت خطوة فى سبيل النجاح كما يقولون ، فقبل رئيس الوزراء المستقيل أن يمد فى أسباب الأزمة إلى أن يصل إلى مصر ، وقبل من ناحية أخرى أن تقام له الحفلة ، ولكن بعد وصوله ، لا فى اليوم الذى يصل فيه .

والظاهر أن الموقف السياسى لمصر كان معرضا لأشد الأخطار ، وأن طائفة من الكوارث الهائلة المروعة كانت تتأهب لمهاجمة هذا البلد المسكين لولا أن تداركه الله بلطفه وعطفه فأرسل الرحمة إلى قلب صدقى باشا ، وأجرى لسانه بكلمات لا تحل الأزمة ولا تلغيها ، وإنما تؤجلها أجلا ما . وستستطيع مصر أن تتنفس وأن تملأ رئتيها بالهواء النقى وأن تدخر من القوة والثبات فى هذه الأيام ما يمكنها من احتمال الصدمة العنيفة التى لا بد من وقوعها يوم الثلاثاء أو يوم الأربعاء ، أو بعد ذلك بقليل . ومصر مدينة بهذا الفرج الموقوت ، وبهذه الراحة المحدودة لما أظهرته المفوضية المصرية فى باريس من اللباقة والنشاط ،

---

(١) ٢ - ٩ - ١٩٣٣

ومن التفوق والمهارة ، فهى إذن حقيقة بالتهنئة ، حَرِيَّة بالثناء . وقد أدى أحد الطرفين المتفاوضين للمفوضية حقها من ذلك ، فأثنى رئيس الوزراء المستقيل ثناء عذبا على مفوضيتنا حين كان يركب القطار أمس ، ولم يبق إلا أن يؤدى الطرف الثانى من الطرفين المتفاوضين إلى المفوضية ما يجب لها عليه من الشكر والثناء . ولعل بلاغا رسميا تصدره الوزارة فتحصى فيه عدد الجهود الموفقة التى بذلها وزيرنا المفوض فى باريس حتى رد رئيس الوزارة عن عناده بعض الشيء فأتاح لمصر أن تبتهج بلقائه ، وقد كان يمكن أن يعود فيؤجل سفره بعد تعجيله . وأتاح للوزراء أن يسعدوا بلقاء رئيسهم وأن يناظروه ويداوروه لعلهم أن يحولوه عن هذه الاستقالة التى وقعت كما يقع الشعر فى الحساء فيما يقول الفرنسيون .

ومهما يكن من شيء ، فنحن فى هدنة قد بدأت منذ ركب رئيس الوزراء قطاره أمس ، وستستمر ثلاثة أيام كاملة ولعلها تزيد قليلا .

ولكن هذه الهدنة لن تريح الخائفين من الخوف ، ولا الطامعين من الطمع ، ولا الساعين بين أولئك وهؤلاء من السعى فستضطرب قلوب الوزاريين ، ويشتد اضطرابها بالخوف والإشفاق وستخفق أفئدة المستوزرين ، ويشتد خفقانها بالأمل والرجاء وسيمضى الساعون فيما يسعون من التأليف والتشكيل ، ومن التوفيق والتقريب ، لعلهم أن يهيئوا للأيام المقبلة وزارة صالحة لخلافة صدقى باشا ، مستكملة على أقل تقدير لبعض هذه الشروط التى تذاع لتخدع الناس ، ولكنها لا تخدع أحدا حتى ولا الذين يذيعونها .

والظاهر أن مكاتب التيمس فى القاهرة يصور أمانى جماعة من الناس حين يتحدث إلى صحيفته بأن الوزارة المقبلة ستتألف من جميع الأحزاب إلا الوفد . وستستطيع بحكم تأليفها وطبيعة الأحزاب التى ستشترك فيها أن تنهض بهذا العبء الثقيل الذى عجز صدقى باشا عن احتماله ، فاضطر إلى أن يلقيه عن كتفيه المتعبتين ، فهى إذن الوزارة القومية التى لا قوم فيها كما قال بعض الوزاريين السابقين ، وهى إذن صورة منقوصة لهذه الأمنية التى كان يتمناها السير برسى لورين فلم يوفق إلى تحقيقها ، وهى على كل حال محاولة من المحاولات لإخفاء هذا الإخفاق الفاضح الشنيع الذى انتهت إليه سياسة هذا العهد السعيد . وهى على كل حال أيضا لا تعدو أن تكون محاولة من المحاولات التى يتكلف أصحابها فى سبيلها الجهد العنيف والمشقة العسيرة ، ثم لا يظفرون منها بشىء ، ولا ينتهون منها إلا إلى سوء الحال ، وخيبة الآمال والندم اللاذع على ما فرطوا فى ذات الوطن وفى ذات أنفسهم .

فكل مصرى يحاول أن يطيل سياسة هذا العهد السعيد مفرط فى حق الوطن ؛ لأن الوطن لم يجن من هذا العهد السعيد خيرا ، ولم يلق من سياسته إلا شر ما تلقى الشعوب من سياسة تقوم على القهر والعنف ، وعلى الاستبداد وإيثار المنافع العاجلة على الواجبات الوطنية الخالدة . ولو أن مصر جنت من سياسة هذا العهد خيرا ولو قليلا ؛ لما رضيت الصحف الإنجليزية عنها هذا الرضى ، ولما حرصت عليها هذا الحرص . فإن هذه الصحف لا يمكن أن تكون مصرية أكثر من

المصريين ، إنما هى صحف إنجليزية قبل كل شيء وفوق كل شيء . وهى تؤثر المنفعة الإنجليزية على كل شيء آخر ، فإذا رأيناها تتمدح بالسياسة التى أقام بناءها صدقى باشا والسير برسى لورين ، وتثنى على النتائج التى انتهت إليها ، فنحن واثقون بأنها لا تظهر ما تظهر من الرضى إلا لأن هذه السياسة قد حققت للإنجليز من المآرب والمنافع العاجلة ما كانوا يريدون . والذين يقرءون ما نشرته التيمس لا يشكون فى أن هناك محالفة بين طلاب المنافع فى مصر وفى إنجلترا على تأييد هذه السياسة التى تحكم بها مصر رغم أنفها ، وعلى غير ما تحب وتهوى .

فأما الحلفاء المصريون فلهم المناصب وما يتصل بها من مظاهر الجاه والسلطان . وأما الإنجليز فلهم تحقيق المآرب وإرضاء المنافع وقضاء الحاجات ، وبسط النفوذ وتوطيد السلطان . وأما مصر فعليها أن تؤدى لأولئك وهؤلاء ما يريد أولئك وهؤلاء مهما يكلفها ذلك من جهد ومهما يحملها ذلك من مشقة ، ومهما يضطرها ذلك إليه من احتمال الذل والضيم ، وصبر على الجوع والحرمان .

كل مصرى يعين من قريب أو بعيد على إطالة هذا العهد الذى أقام بناءه صدقى باشا والسير برسى لورين مفرط فى حق وطنه ؛ لأنه لا يزيد على أن يحقق ما تعترف به التيمس نفسها من أنه حكم المصريين على غير ما يريد المصريون . وهو كذلك مفرط فى حق نفسه لأنه يتعجل المنفعة التى لا خطر لها ، ويضحى فى سبيل ذلك بكرامته وراحته وواجبه ورضى ضميره ، ثم لا يجنى من وراء ذلك كله إلا

ما جناه هؤلاء الذين ساسوا مصر هذه السياسة أكثر من ثلاثة أعوام ، ثم انتهوا إلى ما ينتهون إليه اليوم من سوء الحال وسخط المواطنين .

وإنه لحمق أحمق هذا الذى يخيل للطامعين المتعجلين أنهم سيكونون أحسن حظا من الذين سبقوهم إلى الطمع والتعجل ، وأشد توفيقا إلى ما لم يوفق إليه الذين تقدموهم فى سبيلهما . حمق هذا الذى يخيل إلى الطامعين والمتعجلين أنهم قد يكونون أحسن حظا من رئيس الوزراء المستقيل وأعوانه . وقد يوفقون إلى خير مما وفقوا إليه . فإن الشعب المصرى الذى أبلى الوزارات فى إثر الوزارات ، وضيع جهود المعتدين عليه والطامعين فيه مازال كما كان ، لم يضعف ولم يهن ، ولم يصبه التفريط فى حقه ولا التقصير فى ذات نفسه ، بل ليس من شك فى أن انتصاره على وزارات الشدة والعنف التى أرادت إذلاله وأخذه بغير ما يريد ، قد زادته إيمانا بحقه وثقة بنفسه ، واستعدادا للصبر وقدرة على الجهاد والنضال .

فما أجدر الذين يتحلب ريقهم شوقا إلى الحكم وطمعا فيه . وتنزو قلوبهم فى صدورهم أملا فى السلطان وتعجلا له ، ما أجدر هؤلاء أن يفكروا ويطيلوا التفكير ، وأن يعتبروا ويحسنوا الاعتبار ويتعظوا بهذه المثلات التى خلت من قبلهم وأن يعلموا أن الذى يدفع نفسه إلى وزارة تقوم على غير مشيئة الأمة إنما يدفعها إلى طريق منكرة قد سلكها الناس من قبل ، فلم يلقوا فيها إلا شر ما يلقى السائرون .

أما أنت أيها الشعب المصرى فينبغى أن ترى وأن تقرأ وأن تفهم ما ترى وما تقرأ . هؤلاء خصومك من الإنجليز يعلنون رضاهم عن

هذه الأعوام الثلاثة التى ذقت فيها ألوان الذل والضيم واحتملت فيها صنوف التعس والشقاء ، وهم يزعمون أنك لم تكن فى أى عهد من عهودك خيرا مما كنت فى هذا العهد ، وهم يتمنون لهذا العهد طولا وامتدادا وهم يلتمسون الأعوان والأحلاف ليطول هذا العهد ويمتد ، وتمضى أنت فيما يرون أنك سعيد به من نعمة هذه الحياة الحلوة الراضية التى فتح لك بابها رئيس الوزراء المستقيل . أفترى أن الإنجليز صادقون ؟ أفترى أنك قد سعدت فى ظل رئيس الوزراء المستقيل ؟ أفترى أنك قد شبعت بعد جوع ، وأثريت بعد فقر وكرمت بعد هوان ؟ أفترى أنك حريص حقا على أن تمتد بك أيام هذا العهد السعيد لتزداد سعادة إلى سعادة ، ونعمة إلى نعمة ، ورضى إلى رضى ؟ كلا ، ولو كنت سعيدا حقا ، راضيا حقا ، محبا لسياسة هذا العهد حقا ، لما اضطر الإنجليز أنفسهم إلى أن ينقلوا مندوبهم ، ولما أضطر رئيس الوزراء نفسه أن يستقيل . كلا لست راضيا وما ينبغى لك أن ترضى . ولست خائفا وما ينبغى لك أن تخاف . وإنما أنت شعب صابر مصابر ، تؤثر السلم والعافية ، وتعلم أن فوزك رهين بإيثار السلم والعافية فى غير يأس ولا ضعف ، ولا فرقة ولا استسلام .

فامض على صبرك فلن تغيظ خصومك بخير من الصبر ، وامض على إيمانك بحقك وثقتك بنفسك فلن تهزم خصومك بخير من الثقة والإيمان ، وابتسم فى سخرية للطامعين المتعجلين كما ابتسمت فى سخرية للمخفقين المعتزلين .